الرسالة

(٢ كورنثوس ٦: ١٦- ١٨، ٧: ١)

يا إخوةُ أنتم هيكلُ اللهِ الحيِّ كما قال اللهُ إنّي سأسكُنُ فيهم وأسيُر فيما بينَهم وأكونُ لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً* فلذلك اخرجوا من بينهم واعتزلوا يقولُ الربُّ ولا تَمسُّوا نَجساً* فأقبَلُكم وأكونُ لكم أباً وتكونونَ أنتم لي بنينَ وبناتٍ يقولُ الربُّ القدير* وإذ لنا هذه المواعِدُ أيُّها الأحبَّاءُ فلنُطَهّر أنفسنا من كلّ أدناسِ الجسدِ والروحِ ونكمِّل القداسة بمخافةِ الله.

الإنجيل

(متى ١٥: ٢١–٢٨)

في ذلك الزمان خرجَ يسوعُ إلى نواحي صورَ وصيدا وإذا بامرأةٍ كنعانيَّةٍ قد خرجتْ من تلك التُخومِ وصرخت إليه قائلةً

إرحمني يا ابن داود

تطالعنا الكنيسة المقدسة، في هذه الفترة الليتورجيّة التي تسبق فترة التهيئة للصوم الكبير، بحادثة المرأة الكنعانيّة، التي رغم كونها وثنية، منبوذة من الشعب اليهودي، تجرأت وطلبت من الربّ يسوع الرحمة من أجل ابنتها التي «بها شيطان يعذّبها جدًّا». وقد استطاعت بتواضعها أن تنتزع تلك الرحمة، فعظّم الربّ إيمانها وشفى ابنتها.

العدد ٧ / ٢٠١٦

الأحد ١٤ شباط

تذكار أبينا البار إفكسنديوس

اللحن الرابع

إنجيل السَحَر الرابع

في هذا المقطع الإنجيلي (مت ١٥: ٢١–٢٨) عناصر عدّة تحثّنا الكنيسة المقدّسة من خلالها على اتباع خطى المرأة الكنعانيّة لكي نتهيّأ لنستقبل مسيح الربّ «ابن داود». نلاحظ أوّلًا أنّ الربّ، كما المرأة الوثنيّة، قد خرجا من منطقتيهما: «ثمّ خرج يسوع من هناك (من أرض جنيسارت في الجليل) وانصرف إلى نواحي صور وصيدا. وإذا امرأة كنعانيّة خارجة من تلك التخوم...» (٢١–٢٢). ومع أنّ للربّ الأرض وملأها (مز٢٤: ١)، فقد أشار الإنجيلي إلى أنّ الربّ قصد ملاقاة تلك المرأة في أرض غير تابعة لليهود ولا للأمميّين، بحسب المفهوم البشري، حيث لا عوائق بشريّة تحول دون لقاء الإنسان بالله. لقد سبق ورفض اليهود الربّ يسوع في أرضه (مت١٥: ١–٢٠)، كما أنّ الوثنيّين لا يعترفون بإله اليهود على أنّه إلههم، فكيف عرفت المرأة إذًا أنّ الربّ يسوع هو المسيّا «ابن داود» الذي ينتظره اليهود؟

إنّ الربّ يأتي إلينا ويلقانا من خلال البشارة، فعندما نسمع الكلمة الإلهيّة ونقبلها على أنّها كلمة الله، يكون الربّ حاضرًا أمامنا، هو «كلمة الله». وهو يلقانا من دون وسيط، إنما يبقى علينا نحن أن نقبله، وهذا هو اختبار إيماننا. الإنجيلي متّى قصد إبراز هذا الأمر حين ذكر قبل حادثة المرأة الكنعانيّة حادثة غرق بطرس وكيف شكّ مع أنّه عرف الرب وحاول أن يأتي إليه: «فلمّا أبصره التلاميذ ماشيًا على البحر اضطربوا قائلين إنّه خيال، ومن الخوف صرخوا. فللوقت كلّمهم يسوع قائلاً تشجّعوا، أنا هو، لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال يا سيّد إن كنت أنت هو فمُرني أن آتي إليك على الماء. فقال تعال. فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع. ولكن لما رأى الريح شديدة

خاف وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً يا ربّ نجّني. ففي الحال مدّ يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت» (مت١٤: ٢٦-٣١). في المقابل أتى يسوع إلى المرأة الكنعانيّة وهي عرفته، أي قبلت به أنّه المسيح المنتظر، وطلبت منه الرحمة. بالرغم من العوائق الشديدة أصرّت على إيمانها ولم تشكّ البتّة. إنّها أمميّة، أي وثنيّة، ويعرف اليهود هي خاطئة، لا بل هي على مستوى الحيوانات، وهي لا تستحقّ نِعَمَ الله لأنّها ليست من خراف بيت إسرائيل الضّالة. وهكذا أمام قلّة إيمان بطرس اليهودي، الذي هو من شعب الله، ظهرت عظمة إيمان المرأة الوثنيّة: «أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيمٌ إيمانك» (١٥: ٢٨).

يظهر أيضًا من هذه الحادثة أنّ الخطيئة ليست عائقًا تمنع علاقتنا بالله (خاصة إذا كان هناك توبة حقيقية)، إنّما تبرير الذات هو العائق الحقيقي، الذي يجعلنا نستغني عن الله، وكأنّنا لسنا بحاجة إلى رحمته، لا بل نعيق عمله فينا ونظهر عدم إيماننا به. هذا ما حدث مع الفرّيسيّين الذين كانوا يسعون وراء برّهم الذاتي، وما حدث أيضًا مع اليهود: «ولما جاء إلى وطنه كان يعلّمهم في مجمعهم حتّى بهتوا وقالوا من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟ أليس هذا ابن النّجار؟ أليست أمّه تُدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا؟ أوليست أخواته جميعهنّ عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلّها؟ فكانوا يعثرون به. وأمّا يسوع فقال لهم ليس نبيّ بلا كرامة إلاّ في وطنه وفي بيته. ولم يصنع هناك قوّاتٍ كثيرة لعدم إيمانهم» (مت١٣: ٥٤-٥٨).

الخطوة الأولى إذًا هي الإقرار بابعدنا عن الله وعدم استحقاقنا، كما فعلت المرأة الكنعانيّة. فقد قبلت وضعها، من خلال قبولها بالوصف الذي يطلقه عليها اليهود، ومع أنّها بنظرهم لا تستحق أن تنال شيئًا من نِعَم الله، إلّا أنّها أجبرت الربّ بتواضعها على مساعدتها. لقد انتزعت منه الرحمة انتزاعًا، واستحقّت بذلك أن تكون من بين الخراف الضّالة التي يبحث عنها الله، والتي أرسل الربّ يسوع تلاميذه من أجلها: «هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريّين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة. وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنّه قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا مرضى، طهّروا برصًا، أقيموا موتى. أخرجوا شياطين. مجّانًا أخذتم، مجّانًا أعطوا» (مت١٠: ٥-٨). بتحدّي الرب يسوع إيمان المرأة الكنعانيّة أظهر لتلاميذه أنّ الخروف الضّال من بيت إسرائيل، أي اليهودي الخاطئ، هو على حدٍّ سواء مع الأممي الخاطئ (غل٢: ١٥)، كلاهما سيخلصان بنعمة الله التي يمنحها لهما مجّانًا، إذ إنّهما غير مستحقّين.

لقد وضعت لنا الكنيسة، في الأحدين الماضيين، وفي هذا الأحد، مقاطع من الإنجيل لتحثّنا على تخطي كلّ عائق يحول دون لقائنا مع الربّ. فأعمى أريحا تخطّى العمى الطبيعي، كما تخطّى محاولة الجموع إعاقته وأتى ببصيرته نحو الرب، فنال الخلاص بسبب إيمانه. وزكا تخطّى قصر قامته ووضعه الإجتماعي كمرذول من الشعب، كونه عشّارًا، وأصرّ على رؤية الربّ، فنال الخلاص بسبب قراره السلوك بحسب وصايا الربّ. وهنا المرأة إرحمني يا ربُّ يا ابنَ داود فإنَّ ابنتي بها شيطانٌ يعذِّبها جدًّا* فلم يُجبها بكلمةٍ. فدنا تلاميذُهُ وسألوهُ قائلين إصرِفْها فإنَّها تصيحُ في إثرِنا فأجاب وقالَ لهم لم أُرسَل إلاَّ إلى الخرافِ الضالَّةِ من بيتِ إسرائيل* فأتت وسجدت له قائلةً أغِثني يا ربُّ* فأجاب قائلًا ليس حسناً أن يُؤخذ خبزُ البنين ويُلقى للكلاب* فقالت نعم يا ربُّ فإنَّ الكلابَ أيضاً تأكُلُ مِنَ الفُتاتِ الذي يسقطُ من موائدِ أربابِها* حينئذٍ أجابَ يسوعُ وقال لها يا امرأةُ عظيمٌ إيمانك فليكن لكِ كما أردتِ* فشُفيتِ ابنتُها من تلك الساعة.

تأمل

لقد خرجت الكنعانية من الأودية كزنبق شريف متفوّهة بكلمات تنضح برائحة الروح القدس. ان كان الواحد لا يستطيع أن يقول: يسوع رب إلّا بالروح القدس (١ كور ١٢: ٣)، مَن يُنكر ان لسان الكنعانية كان يحرّكه الروح الإلهي، طالما كان يدعو يسوع بابن داود نفسه وبالرب متوسّلاً منه الرحمة ومقتنعاً ان له السيادة على الشياطين؟

إن كان الإيمان يتولّد بالسماع (رو ١٠: ١٧)، لقد وجد المسيح الكنعانية إناءً حسن الصدى فبوّق فيه بأشدّ الصوت. لأن هذه ما إن آمنت حتى ركضت بحرارة وتوسّلت جهاراً وكرزت في الوقت نفسه صارخة من بعيد: «إرحمني يا ربُّ يا ابن داود فإنّ ابنتي بها شيطانٌ يعذّبها جداً». هي لا تشعر بالمأساة. أمّا أنا فأحسّ بالألم وتحترق أحشائي فأطلب رحمتك، أنت ابن داود حسب البشرية كونك تنحدر من صلبه، وفي الوقت نفسه أنت ربّ الكل كونك إلهاً قبل الدهور، وبسماحٍ منك يعذب الشيطان ابنتي. إن شئت الآن أن تُميل إلي أذنيك برحمتك، يبتعد ذاك اللعين للحال.

«لكن الرب لم يُجبها بكلمة. فدنا تلاميذه وسألوه قائلين اصرفها فإنها تصيح في إثرنا. فأجاب وقال لهم لم أُرسَل إلاّ إلى الخراف الضالة من بيت إسرائيل». لم يجب الرب بكلمة مريداً أن يُبرز بالأكثر إيمانها وفضيلتها لكي يُظهر انه بعدل اتجه إلى الأمم، لا لأن اليهود جحدوه فحسب، بل لأن الأمم أيضاً قد جذبوه عن طريق إيمانهم.

لأنه عندما رآهم فَقَدوا التقوى الأبوية والفضيلة لم يشأ أن يتركهم يهلكون. «فأتت وسجدت له قائلة: الكنعانيّة التي بتواضعها تخطّت وضعها الإجتماعي، كونها أمميّة خاطئة، كما تخطّت محاولة التلاميذ إبعادها عن الربّ، فنالت جزاء إيمانها واستحقّت أن تكون من شعب الله. من هنا علينا نحن أيضًا، في مسيرتنا، أن ننتبه لئلاّ نخاف مما قد يأتي علينا من مصاعب ومن شدائد ومن اضطهاد، فنسقط في قلّة الإيمان كما حدث مع بطرس. وعلينا بالمقابل أن نضع أمام أعيننا الأعمى وزكا والمرأة الكنعانيّة، وغيرهم ممّن ذكرهم الكتاب المقدّس من أجل تعليمنا، ونقتدي بهم، لكي ننال الخلاص من الربّ يسوع المسيح «ابن داود».

استقبال مولود جديد

من العادات والطقوس الجميلة التي نمارسها في الكنيسة هي طقس إدخال الطفل المولود حديثاً إلى الكنيسة في اليوم الأربعين لولادته. فتأتي الأم حاملة طفلها إلى الكنيسة لكي يصلّي الكاهن على رأسيهما ويدخلهما إلى الكنيسة. هذه الصلاة هي الصلاة الثالثة من مجموعة الصلوات الثلاث التي وضعتها الكنيسة في إطار استقبالها لمولود جديد ضمن عائلة المسيح الأكبر، أي الكنيسة. لكن للأسف أهمل المؤمنون الصلاتين الأولى والثانية، وهما الصلاة على المرأة يوم ولادتها وصلاة تسمية الطفل في اليوم الثامن لولادته. من حيث المضمون فإن هذه الصلوات تشكر الله على خلاص المرأة وسلامة الطفل، كما تُذكّر المرأة بالدعوة المقدسة التي هي مدعوة أن تتمها، أي أن تكون واعية أنها مشاركة لله في الخلق، أي أنها تُحقّق ما زرعه الله في الإنسان عند الخلق عندما باركهم وقال لهم: «اثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تك ١: ٢٨). كما أن هذه الصلوات تشكل جزءاً من التهيئة للمعمودية إذ إنها تُعد الطفل، منذ لحظة ولادته، للدخول في عالم الملكوت وتضعه في الجو المناسب لكي يكون مستعداً لقبول النعمة. كيف ذلك؟

عندما خلق الله الإنسان «على صورته» (تك ١: ٢٧)، عهد إليه أن يثمر ويملأ كل الأرض. صورة الله الخالق تجلت في الإنسان الذي يلد ويملأ الأرض. هكذا أصبح الإنسان شريكاً لله في الخلق، وكل عملية ولادة هي مشاركة لله في الخلق. المشكلة أن الإنسان بعد السقوط غيّر نظرته إلى العلاقة بين الرجل والمرأة وصارت تحكمها الشهوة. من هنا كلام كاتب المزامير: «بالآثام حُبل بي وبالخطايا ولدتني أمي» (مز ٥٠: ٥)، أي أن المرأة صارت تحبل بجو من الفساد محكوم بالخطيئة. مع الرب يسوع الذي افتدى كل شيء وصالح الخليقة مع الله ومع ذاتها، نشهد عودة إلى الوضع الفردوسي وهذه العودة تكون لكل مَن يقبلها، لذلك وضعت الكنيسة الصلوات لكي تُخرج المرأة والطفل من جو الفساد والخطيئة المحيطين بهما وتضعهما على طريق الملكوت.

المرأة التي تلد، ولكونها تقوم بعمل فائق القداسة، بحاجة إلى صلوات الكنيسة ولطقس «تطهير» كي تعود إلى ممارسة حياتها في الجماعة، تماماً كما كان على رئيس الكهنة الذي يدخل إلى داخل حجاب الهيكل ليقدم الذبيحة تكفيراً عن نفسه وعن جماعة العبرانيين. فكاتب سِفر اللاويين (الإصحاح ١٦) يذكر أن على الكاهن أن يلبس ثياباً خاصة عند دخول الهيكل ثم عليه أن يغتسل ليتطهر عند خروجه

من الهيكل مع أنه كان يقوم بأمر مقدس. هكذا المرأة عندما تلد، فهي تقوم بعمل مقدس جداً إذ تشارك الله في الخلق، وهي بحاجة إلى طقس «تطهير» يعيدها إلى الجماعة من جديد، ليس لأنها دنسة بمعنى النجاسة بل بمعنى القداسة الفائقة كما هو الكاهن المقرِّب الذبيحة.

لقد كانت الأم مبتعدة عن الحياة الكنسية لمدة أربعين يوماً بسبب إرهاق الولادة التي شاركت عبرها الله في الخلق وهي تعود الآن لتنضم إلى الجماعة المؤمنة وتشترك معهم بجسد المسيح ودمه الكريمين وتمجد اسم الله. في اليوم الأربعين يصلّي الكاهن: «... إليك نطلب وإليك نبتهل، فطهّر من كل خطيئة عبدتك هذه التي خلّصتها بمشيئتك ونقّها من كل دنس إذ هي مقبلة إلى كنيستك المقدسة لكي تستحق بغير مداينة تناول أسرارك المقدسة، وبارك هذا الطفل المولود منها وأنمه وقدّسه وفهّمه وامنحه عقلاً رصيناً وذهناً ذكياً، لأنك أنت الذي أخرجته من العدم إلى الوجود وأريته النور الحسّي لكي يستحق النور العقلي أيضاً في الوقت الذي حددته، وينضم إلى عداد رعيتك المقدسة...»، وأيضاً: «... بارك هذا الطفل مع والديه وعرّابيه وأهّله في الوقت المرافق لإعادة الولادة بالماء والروح، وأحصه في عداد رعيتك المقدسة، رعية الخراف الداعين اسم مسيحك...».

واضح من هذه الصلاة أعلاه أن المرأة لا تأتي بمفردها إلى الكنيسة بل تأتي حاملة طفلها لتقدّمه إلى هيكل الرب كما قدّمت مريم طفلها يسوع، لكي يتهيأ هذا الطفل للمعمودية المقدسة. هذا ما تشدد عليه الصلوات الأخرى أيضاً: «أيها الرب إلهنا، إليك نطلب وإياك نسأل أن ترسم نور وجهك على عبدك هذا (فلان) وليرتسم صليب ابنك الوحيد في قلبه وأفكاره لكي ينجو من أباطيل العالم ومن مؤامرات العدو الرديئة فيتبع أوامرك، وامنحه يا رب أن يكون اسمك القدوس ثابتاً عليه فلا يجحده. ضمّه في الوقت الموافق إلى كنيستك المقدسة وكمّله بأسرار مسيحك الرهيبة لكي يسلك بحسب وصاياك ويحفظ الختم غير منفك فيحظى بغبطة المختارين في ملكوتك» (من صلوات تسمية الطفل في اليوم الثامن لولادته).

عبور الطفل برفقة والديه وعرّابيه باب الكنيسة هو إشارة إلى المعمودية التي تُدخل الطفل إلى الكنيسة، إلى الحياة الجديدة في ملكوت السموات. هذا العبور مهم جداً لأنه يعكس صورة العائلة المسيحية. فالأم وطفلها مع الوالد والعرّابَيْن يدخلون كعائلة واحدة تنضم إلى العائلة الكبيرة، الكنيسة، والعائلة الكبيرة تستقبلهم. الطفل المولود في عائلة مسيحية، نسمّيها «الكنيسة الصغيرة»، هو يخص العائلة الكبيرة، الكنيسة الكبيرة، لذا فإنه لزاماً أن نُدخله إلى وسط الجماعة لتشهد كل الجماعة على انضمامه إليها. نُدخل الطفل إلى الكنيسة بالصلاة لكي يكون فرداً من هذه العائلة المقدسة الكبيرة ولكي يعي منذ الآن أنه جزء من عائلة الرب المدعوة إلى القداسة والاتحاد به، ويربى على هذا الأساس.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

يا رب أَغِثني. فأجاب قائلاً ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى للكلاب. فقالت نعم يا رب فإنّ الكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أربابها».

طالما كانت بعيدة، كانت تطلب رحمة السيّد ولكن عندما لم تحصل على شيء ولم تستطع أن تجعله يميل نحوها اقتربت منه وسجدت له، وأخذت تطلب من جديد عونه. وعند ذلك زجرها الرب. ولكن تلك النفس الجريئة التي كلُّها رجولةٌ بالحقيقة، لم تيأس. وافقت على كلامه «نعم يا رب» وذلّلت نفسها أمامه ولكنها لم تتوقف عن التوسل إلى المسيح.

لنتعلّم من هذه المرأة المعلّمة كيف يجب علينا أن نثابر في الصلوات، بأي صبر، بأي تواضع، بأي تخشع. لنتعلّم أن لا نتراجع حتى وإن كنا غير مستحقين، حتى وإن اتُهمنا بالدنس بسبب خطايانا، بل أن نداوم التوسّل من كل قلبنا وبتواضع. سوف ننال طلبتنا من الله... لقد اعتبرت نفسها غير مستحقة للإشتراك ولتناول الخبز النازل من السماء بل كانت تتوسل بحرارة لكي تُعطى الفتات الساقط من مائدة أربابها.

القديس يوحنا الذهبي الفم